ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

# سيول مكة والمدينة والطائف خلال القرن (11هـ/17م)

Seoul, Mecca, Medina and Taif During The Century (11 AH / 17 AD)

صص98-121

دة. بودالية تواتية
Dr. BOUDALIA touatia
أستاذة تاريخ وسيط –كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر- (الجزائر)
boudalia.touatia@univ-mascara.dz

تاريخ استقبال المقال: 2018/06/14، تاريخ المراجعة: 2018/07/16، تاريخ القبول: 2018/09/10.

**الملخص:** تقع بلاد الحجاز ضمن حيز المناطق الجافة، هذا ما جعلها عرضة لتقلبات مناخية فجائية وكوارث طبيعية خطيرة على مرّ العصور، وتعد سيول مكة والمدينة والطائف خلال القرن (11هـ/17م) من أهم الأحداث التي حفظتها لنا المصادر التاريخية. وعليه يسعى هذا البحث إلى تحديد ظاهرة السيول ومتغيراتها المناخية، والكشف عن آثارها الإيجابية وانعكاساتها السلبية، في مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية، والعمرانية، والثقافية، والدينية والسلوكية. كما لم نستثن في هذا البحث الجوانب البيئية والجهود المبذولة من أجل درء مخاطر السيول، وكذا جهود السلطة الزمنية من أجل إصلاح الحرم الشريف وعمارته.

**الكلمات المفتاحية:** السيول؛ مكة؛ المدينة؛ الطائف.

**Abstract:** The kingdom of the Hijaz is located within the dry area, which made it vulnerable to sudden climatic fluctuation and serious natural throughout the ages. The floods of Mecca, Medina and Taïf during the 17th century were amongst the most important climatic events recorded by the historical sources during the 17th century. To clarify and identify the flood phenomena and their climatic variables and to detect their negative, as well as, positive effects in various aspect of life, economic, urban, cultural, religious and behavioural, our research does not exclude the efforts done in favour of the environment to prevent the consequences of the floods and the reconstruction of the disastrous areas.

**Key words:** The floods; Mecca; Medina; Taïf.

**مقدمة:** تتميز المناطق الجافة عن غيرها من النّطاقات المناخية بأنّها قليلة الأمطار وكثيرة الأخطار؛ حيث تتعرض إلى سقوط أمطار فجائية غزيرة قد تقصر مدتها، وقد

تطول حينا آخر خاصة في فترة الشّتاء، مما يتسبب في حدوث سيول وفيضانات جارفة ومدمرة للبُنى التّحتية للمدن، وتعتبر مدن غرب بلاد الحجاز أكثر المناطق تضررا وبخاصة مكة المكرمة التي تحمل في تاريخها فترات كثيرة من التّقلبات المناخية التي أثرت بشكل مباشر على أداء الشعائر والمناسك.

ونظرا لأهمية السّيول باعتبارها ظاهرة ناتجة عن التّقلبات المناخية حاولنا التّأريخ لسيول مكة والمدينة والطائف خلال القرن (11هـ/17م)، وحتى تتكامل عناصر الظاهرة الطبيعية تاريخيا، فإنّ هذه الدراسة تروم وصفّ مختلف الظواهر والتّفاعلات التي أحدثتها السيول، عبر تحليل عناصرها والوقوف على آثارها السلبية والايجابية، والكشف عن الجديد ما أمكن جغرافيا وتاريخيا.

وتهدف هذه الدراسة إلى تفكيك المادة التاريخية التي ينتمي أغلب أصحابها لفترة موضوع الدراسة، ولا شك أنّ هذا القرب ساهم في إعادة قراءتها وفق نمط علمي جديد، يكشف عن الخاص والعام لفهم وإدراك نوعية وأسباب هذه الظاهرة الطبيعية. كما أمكن رصد أهم التطورات التي لحقت بالمجال والساكنة، وأشكال السلوك والقيم التي أفرزتها السيول، دون أن نعدم جهود السلطة في حماية البيئة والحرمين الشريفين.

إنّ اختيار المجال الجغرافي المتمثل في مكة والمدينة والطائف راجع إلى نوع المادة التاريخية التي سيتم الوقوف عندها، حيث تقدم سيول مكة وصفا جامعا للظاهرة، بينما تقتصر المدينة والطائف على جانب واحد، نظرا لما تحمله من مؤشرات ومتغيرات نادرة لم تحصل في مكة، مثل ظاهرة نزول البرد في غير حالته الطبيعية في الطائف، وفيضان الأودية بسبب زيادة التصريف المائي النّاجم عن زيادة طارئة في التساقط في المدينة المنورة، وسمحت هذه الحالات النّادرة بإماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية وعلى وجه الخصوص تفسير متغيرات الطقس وتحديد أسباب السيول ومؤثراتها.

ونظرا لطبيعة الموضوع تم الاعتماد على بعض المناهج؛ فهذه الدراسة تهتم بتحليل ظاهرة السيول في القرن 11هـ/17م مع تحديد آثارها السلبية والايجابية في آن واحد، مما دفعنا إلى الاعتماد على المنهج الوصفي والتحليلي لتحديد تأثير السيول على

ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مختلف الجوانب الحياتية والسلوكية، كما لم نستغن عن المنهج الإحصائي لقراءة المتغيرات العددية التي أقرت بها المادة المصدرية، ومؤشراتها ساعدت في تجديد المعرفة التاريخية المتعلقة بالسيول.

**أولا: تعريف السيول:** السيول هي من أبرز مظاهر الكوارث الطبيعية المتكررة الناتجة عن هطول الأمطار الغزيرة، ويعرفها ابن منظور قائلا: "سيل: سال الماء والشيء سيلا وسيلانا: جرى، وهي مياه الأمطار إذا سالت"[1]، والسَّيْلُ مفرد السُّيُولِ، وَسَالَ الْمَاءُ وَغَيْرُهُ[2]، والسيول عند إخوان الصفا: "مياه أودية تجري من كثرة الأمطار"[3].

وترتبط السيول بكمية تساقط الأمطار وسطح الأرض؛ فقد قيل بأنّ: "المطر إذا وقع على الأرض واجتمعت منه مياه كثيرة ووجدت لها إلى الجريان والسيلان سبيلا، جرت سيولا ممدودا، ...وإن اجتمعت من المطر منه جمل وسالت بكثرة سميت سيلا، وكلما كانت الأمطار أكثر كان الماء أغزر"[4].

في الواقع يمكن القول إنّ السيول هي نوع من الفيضانات الخاطفة المدمرة التي تحدث نتيجة لهطول مطر شديد، ويعلل شيخ الربوة بأن علة تكوين الماء وتكثرها: "إنما هو من عصارات الأرض ومخازنها المجموعة فيها مياه الأمطار ورطوبات الأبخرة الندية المسماة الندي...، تحركها حرارة الشمس وسخونة الأرض...؛ فيرقى بخارا...؛ فينعقد أجزاء مائية... ثم إذا انعقد ذلك جمعته الرياح وأحدرته مطراَ، ثم يسيح الباقي منه سيولاَ ممدوداً على وجهها سيحا"[5].

كما عرّف السيل على أنّه العملية المستمرة التي يتحرك الماء خلالها على سطح الأرض من الارتفاعات العليا إلى المناطق السفلى بفعل قوة الجاذبية الأرضية، وهناك عوامل تؤثر فيه وفي مدى استمراره منها عوامل جيولوجية مثل أنواع الصخور والتربة، وعوامل تضاريسية، ورطوبة التربة قبل الهطول، وعمق منسوب الماء الجوفي، دون أن ننسى خصائص المطر من حيث الشّدة والمدة والعمق، وكذا مساحة الهطول[6].

**ثانيا: تقويم لتاريخ السيول خلال القرن 11هـ/17م:** لقد تميز هذا القرن بحدوث تغيرات مناخية شملت غرب بلاد الحجاز (مكة، المدينة، الطائف) على هيئة أمطار ورعود وبرد مع ازدياد التساقط، وللهبوط السريع في درجات الحرارة مع ازدياد التساقط أثر في نزول البرد بغير حجمه الطبيعي[7]، ولقد حدث البرد في فترات يتراوح

عددها بين اثنين وثلاث، تعاقبت مع فترات مطرٍ فصلت بينهما، ويبين الجدول أدناه حدوث تتابع لفترات رطبة ممطرة تتوزع على مكة والمدينة والطائف، وتحدث سيول مكة تارة على فترات متتابعة بكميات عالية في السنة نفسها مثل سيول 1039هـ /1630م)، وسيول 1091هـ/1680م، أو على فترات مختلفة كما هو موضح في الجدول التالي:

| السنة بالهجري | الشهر | التحويل للميلادي | الفصول | المكان |
|---|---|---|---|---|
| 1019 | // | 1610 | // | مكة |
| 1021 | // | 1612 | // | مكة |
| 1023 | // | 1614 | // | مكة |
| 1024 | 13 ذو القعدة | 1615/12/3 | الخريف | مكة |
| 1033 | 17 جمادى الأخرة | 1624/04/5 | الربيع | مكة |
| 1039 | الثلاثاء ثامن شعبان | 1630/03/22 | الربيع | المدينة المنورة |
| 1039 | الأربعاء تاسع شعبان | 1630/03/23 | الربيع | مكة |
| 1053 | تاسع ذو القعدة | 1644/01/18 | الشتاء | عرفات |
| 1055 | الأربعاء لثلاث عشرة من شوال | 1645/12/1 | الخريف | مكة |
| 1073 | أواخر جمادى الثانية | 1663 /01/-- | الشتاء | المدينة المنورة |
| 1074 | السبت سابع شعبان | 1664/03/4 | الشتاء | مكة |
| 1079 | // | // | الشتاء | الطائف |
| 1079 | الثلاثاء أربع شوال | 1669/03/6 | الشتاء | مكة |
| 1081 | ثالث شوال | 1671/02/12 | الشتاء | مكة |
| 1089 | ثاني عشر ذي الحجة | 1679/01/24 | الشتاء | المدينة المنورة |
| 1091 | عاشر ذي القعدة | 1680/12/1 | الخريف | مكة |
| 1091 | ثاني عشر ذي الحجة | 1681/01/2 | الشتاء | مكة |

واللافت للانتباه تكرار الظواهر الجوية المتغيرة بين مطر وبرد بمعنى أنها تتكرر في الفصل نفسه، وفي مواقيت محددة كما وصفتها لنا المصادر التاريخية، من حيث طول المدة وعودة السيول في السنة نفسها، وهيمنة الظاهرة المناخية على مكة، وجل السيول حدثت بشكل وقتي إما متقاربة أو متباعدة زمنيا، وآثارها مدمرة للبيئة الحيوية ومخربة للأنشطة البشرية.

كما يمكن التمييز بين فترة التساقط والسيول ومواسمها، حيث استأثر فصل الشتاء بسبة عالية تقدر بـ43,75 % كما هو موضح في الجدول التالي:

| الفصول | تكرار السيول | النسبة المئوية% |
|---|---|---|
| الشتاء | 07 | 43,75 |
| الربيع | 03 | 18,75 |
| الخريف | 03 | 18,75 |
| غير مصرح به | 03 | 18,75 |

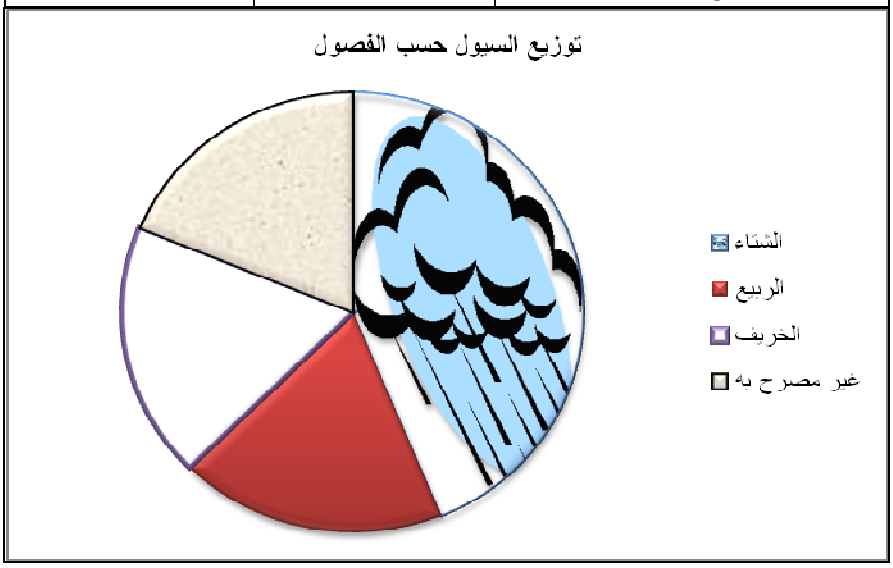


**ثالثا: وصف حالات الطقس زمن السيول خلال القرن 11هـ/17م:** كشفت النصوص التي جُمِعت كعينة للدراسة عن سيول القرن 11هـ/17م عن تعدد حالات الطقس زمن السيل، والتي تصف خصائص المطر من حيث المدة والشدة ونوع التساقط، وكلها عوامل طبيعية ومناخية مسببة للسيول، ونوضحها كما يلي:

**1- حالة الطقس الرعدية الممطرة:** وهي الحالات التي تشمل كافة مراحل العاصفة الرعدية، تبدأ بالبرق والرعد، وتنتهي بهطول الأمطار أو الثلج أو البرد، ومن القرائن الدالة على هذه الحالة من الطقس ما حدث يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة تسع وثلاثين وألف (1039هـ/1630م)؛ حيث "نشأت على مكة وأقطارها سحابة غريبة، مدلهبة اللهاب، حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت، وأرّخت عزاليها وأغدقت، واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين"[8]، والظاهر من

النص وجود ثلاثة مصطلحات عربية تعبر عن شدة المطر وهي: الأولى اللّهاب وتعني المطر الشديد[9]، والثانية الجلباب وتعني المطر الكثير[10]، والثّالثة الغدق وهو المطر الكثير القطر[11]، وكلها في الواقع مؤشرات نصية تفصح عن قوة تهاطل الأمطار التي ساهمت في حدوث السيول بالرغم من قصر المدة أي ساعتين، ويمكن اعتبار كمية الأمطار وغزارتها عاملا مهما لحدوث السيول.

وعلى خلاف ذلك، وقع سنة 1074هـ/1664م سيل مهول دخل الحرم وبلغ حد القناديل[12]، وكان سبب هذا السيل العواصف والرياح والرعد والبرق، وهي حالة الطقس التي صرح بها علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري(1057-1125هـ/1647-1713م) في كتابه عندما نقل عن شيخه قوله في السيل:

قد أرسَل الله الرِياحَ لوَاقحًا بَسَط السَّحابَ فَحل وَبْلاً واكفًا

في سابع والسبت من شعبانًا بالمسجدِ الطُوفان أمْسَى عاكفًا[13]

ويضيف في وصف السماء والتغيرات المناخية من رعد وبرق وغزارة هطول الأمطار بقوله:

قَهْقه الرّعْد عنْدمَا ابتَسَم البَرق فَأبْكى الغَمَام قَطر المياه

**2- حالة الطقس الممطرة:** وهي الحالات التي تشير إلى مراحل تساقط الأمطار؛ ففي سنة 1023هـ/1614م وقع بمكة مطر عظيم نزل فيه برد كبير، كل بردة أكبر من شربة الماء[14]، وبالمثل وقع في آخر يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة 1039هـ/1630م، حدث سيل "ما رأت أعين مثله منذ زمان، وحصل قبله مطر كان ابتداؤه بعد صلاة ظهر ذلك اليوم، ولم يزل كذلك من قريب عصر اليوم المذكور إلى قريب العشاء"[15].

وتحدث السيول في بعض الأحيان نتيجة فيضان الأودية بسبب التساقط الهاطل لمدة طويلة، وفي هذا الصدد سالت "سنة تسع وثمانين وألف (1089هـ/1679م) أودية طيبة المنورة[16] على صاحبها أفصل الصلاة والسلام. وحصل ذلك قبل أيام تكاثف أغمام. ونزل مطر شديد واستمر إلى يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة؛ فسال وادي الوجيدة بسيل هائل"[17]، وفي السياق نفسه أرخت السماء عَزاليّها بالأمطار الغزيرة المتوالية سنة 1074هـ/1664م حتى سال وادي قناة بالمدينة المنورة، وهو من أعظم الأودية سيلا، وبقي مدة يجري وكأنه طوفان[18]، ويبدو

أنّ طول مدة التساقط هي التي غمرت الأودية بالتغذية الواسعة إلى حد الفيضان وحدوث سيل بالمدينة المنورة.

**3- حالة طقس: نزول البرد:** تعد ظاهرة نزول البَرَد إحدى الظواهر الطبيعية الأكثر تعقيدا، ويتجلى هذا التعقيد من خلال العمليات التي ترافق تشكل البرد، حيث يتكون في السحب المؤلفة للعواصف الرعدية نتيجة صعود قطرات الماء إلى أعلى بسبب دفعها بواسطة التيارات الهوائية الصاعدة في السحابة، فيتكون البَرَدُ ويثقل ثم ينزل نحو سطح الأرض نتيجة عامل جاذبية الأرض، وقد يزداد حجم حبات البرد إذا كان الهواء السفلي باردا[19]، ولقد تعرضت المدينة المنورة سنة 1039هـ/1630م إلى مطر غزير وبرد كثير القطعة الواحدة أزيد من قفطار تحمل على الجمل أو الحمار[20].

وبالمثل تعرضت الطائف سنة 1079هـ/1669م إلى سقوط مطر وبرد شديد له وقع عظيم، بحيث صار يضرب في الصخر والأبواب كالبنادق، غالبه كبيض الحمام، وبعضه كبيض الدجاج[21]، وفي ذلك يقول الشيلي: "بل سمعت غير واحد يقول: وزنْتُ واحدة فكانت رطل، ووقع بعضه على قدر فخرقه"[22].

**رابعا: درجة السيل: سيول مكة أنموذجا:** لا يمكننا بأي حال من الأحوال قياس درجة السيول في القرن 11هـ/17م لعدم وجود أجهزة خاصة كما هو الحال في عصرنا، والخيار الأمثل هو اعتماد تصنيف شومان[23]، ولأجل ذلك اخترنا سيول مكة نموذجا للتحليل؛ حيث لم تسعفنا المصادر التاريخية في الكشف عن تكرار السيول التي مست كلا من الطائف والمدينة، بينما أخذت مكة حيزا واسعا من هذه المشكلة، وبلغت ثلاثة عشر سيلا مس مكة المكرمة، وستكون هذه العينة النموذج الأمثل لقياس درجة السيول من خلال الدلائل التاريخية التي تصرح بمنطقة وصول الماء وملامستها لحدود علو الكعبة، كما هو موضح في الجدول التالي:

| الدرجة | مستوى الماء | السنوات بالهجري | عدد التكرارات |
|---|---|---|---|
| **01** | ارتفع السيل حتى بلغ قفل باب الكعبة أو أعلى ذلك | 1019-1039-1081-1091-1091 | 05 |
| **02** | ارتفع السيل إلى علو بين القفل وأسفل الكعبة | 1074 | 01 |

| | | | |
|---|---|---|---|
| **03** | ارتفع السيل إلى أن وصل أسفل الحجر الأسود | 1055-1033 | 02 |

يظهر من خلال الجدول الذي تم فيه توزيع السيول في مكة المكرمة، والتي ربطت بارتفاعها حول الكعبة، أنَّ أخطر السيول من الدرجة الأولى قد غمر الكعبة تكرارها لا يتعدى بضع عشر سنين، أما سيول الدرجة الثانية فحدثت مرة سنة 1074هـ/1664م، بينما تكررت سيول الدرجة الثالثة مرتين خلال القرن 11هـ/17م، وتشير هذه الدلالات إلى وجود سنوات تجاوزت فيها الأمطار حدها بكثير، مما شكل عائقا دائما ومستمرا لحجاج مكة وسكانها نظرا للأمطار الفجائية التي تسبب السيول.

**خامسا: أضرار سيول القرن 11هـ/17م:**

**1- الخسائر البشرية:** تعتبر دراسة الخسائر البشرية من أصعب الدراسات التدقيقية في تحديد نسبة الموتى في مرحلة تتباين نصوصها في الإفصاح عن إحصائيات تقريبية، والضّرورة تتحكم في إعطاء مجموعة من القرائن التي لا يمكن حصرها في إشارات منفردة، لأنّ كل حالة ستعبر عن نوعها وعن صداها، وسنوضح مسألة الخسائر البشرية وفق ما صرحت به الشواهد التاريخية للسيول، وتنوعت بين ما هو لفظي يعبر عن هول الكارثة، وبين ما هو عددي يقر بنسبة الخسارة البشرية، والجدول التالي يقدم تقديرات عددية للخسائر البشرية التي كشفت عنها عينة الدراسة[24]:

| سنة السيل بالهجري | عدد الموتى |
|---|---|
| 1039 | 500 |
| 1039 | 1000 |
| 1074 | 6 |
| 1079 | 2 |
| 1091 | 300 |
| 1091 | 500 |

ردمد EISSN 2600–6324 ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

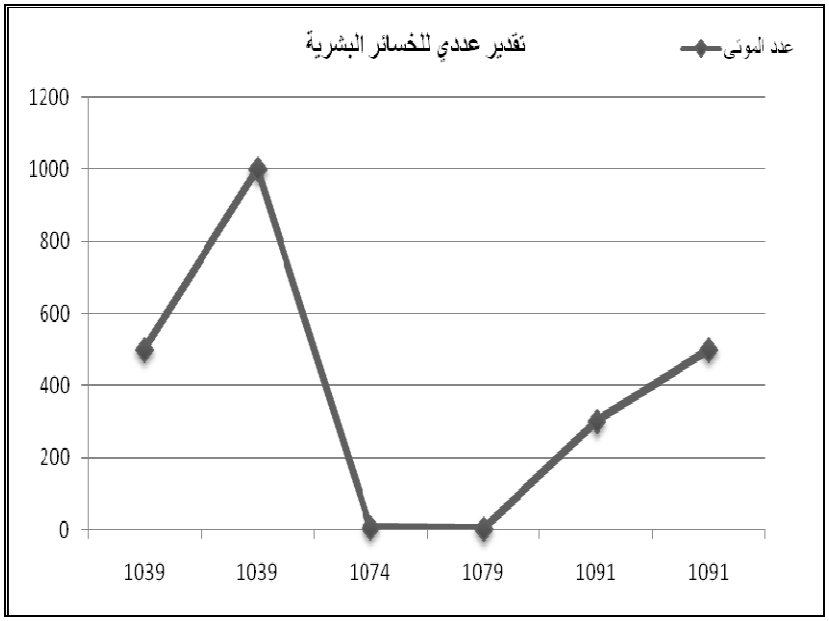


والظاهر من الرسم البياني أنّه يمكننا تحديد حجم الكارثة الطبيعية بين الكارثة الفردية التي لا تتعدى خسائرها عدة أفراد، وكارثة جماعية التي تخلق خسائر فادحة في الأرواح، ووفقا للجدول نلاحظ ارتفاع الكثافة السكانية بمكة المكرمة باعتبارها من الأماكن التي يشعر فيها الإنسان بالأمان والاستقرار، وهذا الاحتواء البشري دائما يكون معرضا لخطر السيول وبنسب متفاوتة.

كما أكدت عينة الدراسة التصريح اللفظي للمصادر التاريخية، والتي تحيل بفجاعة الكارثة التي أدت إلى خسائر بشرية من دون التمييز بين الفئات العمرية، وعلى سبيل الذكر أهلك سيل سنة 1039هـ/1630م الرجال والأطفال، وكل من وجد في المسجد، وكان أكثر الهالكين: "الأطفال الذين يقرأون القرآن مع فقهائهم؛ فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية؛ فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع"[25]، وفي السنة نفسها تكرر السيل الذي مات بسببه خلق كثير بالمسجد وخارجه، وحمل جماعة كثيرون فماتوا فيه، وامتلأ المسجد الحرام من الموتى[26]، وبالمثل أصاب سيل سنة 1091هـ/1681م عدد من وفد الحج المصري وأكثرهم من الغرباء[27].

ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

لا مراء في أنّ السيول التي مست القرن 11هـ/17م قد اقترنت بتعرض النّطاقات الجغرافية المدروسة إلى مشكل ديمغرافي يتغير بتغير قوة السيول، والأرقام والنصوص المتوفرة توضح تزايد عدد الوفيات بشكل غير طبيعي تتفاوت فئاتها بين الأطفال والرجال من الفقهاء والحجاج والغرباء.

**2- الخسائر المادية:** ليس من الغريب أن تمحي السيول المجال العمراني؛ فقد ساهمت في تحطيم وتفكيك البنية المعمارية خلال القرن 11هـ/17م، وخلفت خسائر مادية معتبرة حيث هدم سيل سنة 1024هـ/1615م بيوت مكة[28]، وفي سنة 1039هـ/1630م ساق السيل ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك[29]، وخربت الدور في السنة نفسها من تكرار السيل، الذي حمل أمتعة غالب النّاس من بيوتها وأخرجها[30]، وأسقط سيل المدينة المنورة وبردها في السنة نفسها النخل والزرع[31]، وأتلف سيل 1074هـ/1664م جملة من الأبنية والعشش[32] وأموالا كثيرة[33]، وأخذ سيل سنة 1091هـ/1680 أموالا لا تحصى[34]، والغالب على تأثير السيول تدمير البنى التحتية والممتلكات، فضلا عما تسببته من نفاذ المؤن.

وعلى غرار مكة، لم تسلم المدينة المنورة من أضرار السيول؛ حيث سال سنة 1089هـ/1679م "وادي أبو جيدة[35] بسيل هائل خرّب جميع ما حوله من الديار وأحذف إلى الحدائق الدمار، وأحدق بالمدينة وخرب كثيراً من الدور التي تحتها، وكاد أن يدخل من باب المغربي"[36].

إنّ فقدان عوامل القوة المالية من السلبيات غير المرضية التي تؤثر فيها السيول بشكل واضح، ونسبة الخسارة المادية تأخذ اتساعها وخطورتها بقوة السيل ومدته، وتكون الدور والمراعي والبساتين والممتلكات والأموال ضحية عملية تدفق السيول على المدن، مما سيؤدي إلى أضرار اقتصادية ومعنوية واجتماعية.

**3- خراب المسجد الحرام:** لم يكن المسجد الحرام بمنأى عن الخراب والتدمير بسبب الكارثة الطبيعية والمناخية؛ فقد تعرض بدوره لعمليات الهدم، وكانت أكبر كارثة في سنة 1039هـ/1630م، حيث سقط الجدار الشامي من الكعبة المشرفة وبعض الجدارين الشرقي والغربي، وكان ذلك بسبب السيل الذي دخل المسجد الحرام والكعبة المشرفة[37]؛ فقد هدمت تارة من بعض حيطانه، وتارة من أسفل جدرانه،

وتارة من بطنه أو من خلفه، وتارة من سقفه أو في سطحه، وتارة يسقط منه بعض الأحجار من ظاهره، وتارة من باطنه بأوله أو بآخره، ولم يصدر هدم استأصل معظمه[38]، وأعاد بناءه السلطان مراد خان (1032-1049هـ/1622-1639م)[39] بناء جديدا[40]، وقد قيل في سقوط الجدار[41]:

ماجتْ قواعدُ الغــراءُ واضطربَتْ واهتزَّتْ الأرضُ من أقطارها وربتْ
وأمستِ الكعبــةُ الغـراءُ ساقطـةً فمـا أشـك بـأنَّ الساعــةَ اقتربتْ
فأيُ خطْبٍ به أحشاؤها انصدَعَتْ وأيُ هــولٍ بــه ألبـابُنَــا انسلَبَتْ

وفي دولة الشريف زيد بن محسن وقع بمكة سيل في سنة 1055هـ/1645م ودخل المسجد الحرام، وعلا عتبة باب الكعبة مقدار ذراع، وأتلف ما في قبة الفراشين من الأرباع والكتب، وامتلأ المسجد الحرام بالتراب والقمامات؛ فتصدى له الشريف زيد بن محسن وأمر بتنظيفه[42]، وبالمثل علا سيل سنة 1091هـ/1681م بمكة باب الكعبة المعظمة، ودفع جملا محملا في طريقه، فأدخله المسجد الحرام حتى صار فوق المنبر، فلم يزل فوقه حتى صبح اليوم الثاني[43].

هذا ولم يسلم المسجد الحرام من التّلوث المائي، وانتشار الأتربة والطين والأوساخ في الحرم بسبب السيول، وهي الظاهرة التي سيتم معالجتها في الانسياب الطيني.

**4- غلاء الأسعار:** أكدت المادة المصدرية في المجال الجغرافي المدروس وقوع ظاهرة الغلاء دون الإشارة إلى ارتباطها بالسيل كنتيجة حتمية، ولكنّها أرخت إلى سنة حدوثها، وهو ما سدّ الفجوة والثغرة التي تفيد بحدوث غلاء عقب بعض السيول، ويبدو أنّ العلاقة بين السيول والغلاء هي علاقة بين مثير طبيعي ونتيجة اقتصادية واجتماعية مأساوية تعصف في الغالب بالفقراء؛ فكانت أثار سيل سنة 1039هـ/1630م كافية ليغلو السعر وتضيق معايش النّاس بمكة أيام الشريف مسعود بن إدريس بن حسن[44] إلى درجة أن أكل النّاس الدخن لقلة الأقوات[45]، ولقد أساء السيل الذي شهدته مدينة مكة والطائف سنة 1079هـ/1669م حيث غلت الأسعار، وضجت مكة بالفقراء[46]، مما سيترتب عنه بطبيعة الحال استفحال ظاهرة الفقر والأمراض.

**5- المجاعات:** تحدث المجاعات بفعل الكوارث الطبيعية والمناخية؛ فقد أدت سيول سنة 1079هـ/1669م التي ضربت مكة والطائف إلى فاجعة إنسانية، حيث فشا الجوع بين النّاس، وأكلوا الرمم والدماء والعظام[47]، وتتبث هذه المحنة تعقدّ الأوضاع التي هددت النّوع البشري في ظل استعمال المحرمات- أكل الميتة- في حالة الإضطرار، وهو في الواقع سلوك فرضته قوة تأثير الكوارث لطرد شبح المجاعة، وقد يخلق ذلك إشكاليات التكيف والمواءمة.

**6- تعطل العبادات:** خصّ الله المسجد الحرام بالفضل العظيم، وفضل الصلاة فيه من أعظم البركات التي شرفه بها الله، وهو موضع لأداء مناسك الحج وغيرها من العبادات، وفي ذلك يقول ابن القيم: "ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها وهي البلد الحرام؛ فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه- صلى الله عليه وسلم- وجعله مناسك لعباده وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق"[48].

ولكن ظاهرة السيول قد أفضت إلى تعطيل العبادات وأولها الصلاة، فقد تعطلت الصلاة سنة 1039هـ/1630م عندما حصل سيل دخل المسجد الحرام، ولم يزل كذلك من قريب عصر اليوم المذكور إلى قريب العشاء، وتعطلت الجماعة بالمسجد الحرام مغربا وعشاء وصبح اليوم الذي يليه وظهره[49]، وبالمثل تعطل المسجد عن الأذان والجماعات خمسة أوقات سنة 1079هـ/1669م[50]، والظاهرة نفسها سجلت سنة 1079هـ/1669م حيث سالت الأودية وامتلأ المسجد الحرام بالماء ووصل الحجر، وتعطلت الجماعة يوم السيل.

وألزمت هذه الظاهرة التي أغرقت المسجد الحرام وأعاقت طواف الحجاج، في تحول الطائفين لأداء الفريضة إلى اتمام شعائرهم سباحة؛ فقد شوهد في سيل سنة 1033هـ/1624م شخصا يطوف سابحا في الماء[51]، وفي سنة 1074هـ/1664م طاف بعض الناس عوما ممن يحسن السباحة[52].

ومما يثبث تعاظم خطر السيول على الحجاج صعوبة التحرك ومواصلة أداء المنّاسك؛ ففي سنة 1053هـ/1644م وقع سيل عظيم بعرفات، واستمر من الظهر إلى المغرب؛ "فلما نفر النّاس عاقهم السيل المعترض، من تحت العلمين عن المرور،

ومنعهم من دخول الحرم، فاستمر النّاس وقوفا إلى آخر الليل، فخف قليلا فقطعوه بغاية المشقة"[53]، والظاهر أنّ السيل قد أعاق الحجاج بعد وقوفهم بعرفة ومنعهم من المغادرة بعد آذان المغرب، وانتظروا آخر الليل لاستكمال المنّاسك والتحرك إلى مزدلفة ومنى لرجم جمرة العقبة الكبرى، ومنها للحرم للطواف، لكن عبورهم سار بمشقة كبيرة أرهقت الحجاج.

**7- تعطل الحركة العلمية:** كان المسجد الحرام على مر العصور المكان الرئيس لنشر العلوم، وللمكتبات التي يحويها أثر بارز في تطور التعليم، ولم تلبث أن تعطلت الحركة العلمية والتعليمية خلال القرن 11هـ/17م بسبب تعطل وضياع المكتبة النفيسة التي غرقت في سيل سنة 1074هـ/1664م، وأهمها خزانة الكتب للشيخ سيدي أبي مهدي عيسى الثعالبي[54] الذي اشتغل بالتدريس في الحرمين الشريفين[55]، وشهد العياشي 1090هـ/1679م على ضياعها بقوله: "كانت- المكتبة- بالمسجد على وجه الأرض، ولها باب مفتوح إلى المسجد فيما بين باب حزورة وباب إبراهيم، وكان يجلس فيها أحيانا وهي مأواه قبل أن يتأهل، فلما سافر إلى المدينة ترك فيها بعض كتبه، وكانت مفاتيحه بيد رجل من أهل غفر بقية من أصحابه كان يأوي إليها، فطرق حادث السيل وغفل عن تنحية الكتب ظنا منه كغيره أن الأمر لا يبلغ إلى ما بلغ، حتى أتى الماء عليها كلها ولم يسلم منها شيء وكانت نحو ثمانين سفرا، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها"[56]، كما أتلف سيل سنة 1055هـ/1645م ما في خزائن المسجد الحرام من الفرائض والمصاحف والكتب والرباع[57].

والظاهر من النص وجود بعض المكتبات الخاصة والشخصية، التي غالبا ما تكون ملحقة بالمساجد، والتي توفر بعض الكتب المنسوخة لخدمة طلاب العلم، ولكنّها تعرضت للتلف مما سيؤدي إلى تعطيل الحركة العلمية مؤقتا بسبب ضياع أنفس الكتب وأندرها في السيول.

**8- الانسياب الطيني وجفافه:** الانسياب الفتاتي والانسياب الطيني هو خليط من صخور وتربة ومادة عضوية، تخلط بالهواء والماء لتجري سريعا نحو أسفل المنحدر، وغالبا ما يكون الجزء العلوي من الانسياب محصورا بواد، لكنه ينتشر إلى الخارج عندما يصبح طريقا، ويحتوي انسياب الفتات على أقل من 50% من الفتات النّاعم

(كالرمل وغرين والطين)، ويذكر أن الانسياب الفتاتي تتسبب في أضرار كارثية[58]، وتعتبر النّطاقات الجغرافية المدروسة من أكثر المناطق تباينا في التركيب الجيولوجي، لأنّها تنتمي في أجزاء واسعة منها إلى السلاسل المتكونة ما قبل العصر الكامبري، وهي عبارة عن سلاسل من الصخور البركانية والمتحولة، وتتكون من صخور الشست والجرانيت وغيرها، إلى جانب رواسب الزمن الجيولوجي الثالث، والتي عادةً ما تتكون من رمالٍ مفككة، والحصى والطين وغرين[59].

وعليه يحدث مع السيول الانسياب الطيني الذي غالبا ما يغمر المسجد الحرام مثلما حدث في سيل سنة 1074هـ/1664م، حيث امتلآ المسجد كله ترابا وطينا، ولم يتمكن النّاس من الصلاة فيه والطواف إلاّ بمشقة، وأمر السلطان بإغلاق الحوانيت، واجتمع أهل مكة كلهم واجتهدوا في إخراج ما أمكن من التراب والأحجار والطين[60]، وبسبب ارتفاع درجة الحرارة في موسم الربيع من السنة نفسها جفّ الطين ويبست الأرض حتى أمر السلطان بحرثها بالبقر ليتمكن النّاس من رفعها[61]؛ فهذا العياشي (ت1090هـ/1679م) يتحدث عن طريقة إخراج التراب الجاف من الحرم المكي بقوله: "فأخرجوا التراب حتى خلصوا إلى الحصباء التي فرش بها المسجد فوجدوها قد اختلطت بالحمأة، ورسبت فيها وصارت كالأرض الصلبة التي لم تحفر قط، فأخذوا يحفرونها، وكان من لطيف احتيالهم المغني عن تكلف نقل حصباء أخرى من خارج البلد أن اتخذوا غرابيل عديدة من حلفاء أو غيرها من نبات الأرض واسعة العيون؛ فكان الذين يخدمون طوائف؛ طائفة تحفر، وأخرى تغربل ما تحفر تلك، والثالثة تلقي التراب المنخول خارج الأبواب ويتركون الحصباء مكانها، فصاروا لا يمرون بموضع إلا بلغ النّهاية في النّظافة كأنّه لم يمر به أذى ولا تعلق به قذى، وينتقلون من مكان إلى مكان في المسجد حتى نظف كله وحصب كما كان"[62].

وبالموزاة مع ذلك، ونتيجة للظروف المناخية الجافة التي شهدتها مكة، فإنّ جريان السيل السريع الذي وقع في دولة الشريف زيد بن محسن[63] ليلة الأربعاء لثلاث عشر بقين من شوال سنة 1055هـ/1645م كان مصحوبا بحدوث تعرية لسطح الأرض، فتسبب عند دخوله المسجد الحرام بتلوث المكان بالتراب والقمامات، وهو الأمر الذي تصدى له الشريف زيد بن محسن وأمر بتنظيفه[64].

**سادسا: تأثير سيول القرن(11هـ/17م)على الذهنيات:** السيول من أهم العوامل المؤثرة والمتحكمة في سلوكيات الإنسان رهبة ورغبة، والمتمعن للنصوص تنكشف له الحقائق التالية:

**1- التوبة والاستغفار:** بالرغم من تكرر الكوارث المناخية، إلا أنّها شكلت مصدر خوف وهلع كبير لدى السكان، وارتبط هذا الخوف باعتقاد قرب الساعة أو عقاب مسلط من الله تعالى على الطغيان وكثرة المعاصي، وفي مثل هذه الحالات كثيرا ما نجد سلوكا دينيا لدى عامة النّاس، فمن هول الكارثة اتبعوا منهج التوبة والتحصن بالدين خوفا من العقاب والتوسل إلى الله لكشف الغمة؛ ففي سنة 1039هـ/1630م ارتجفت قلوب أهل مكة من هول الكارثة[65] عندما سقط الجدار الشامي من الكعبة المشرفة وبعض الجدارين الشرقي والغربي، فحينئذ وقع الضجيج العام والانزعاج في قلوب الأنام[66]، وضجت الأصوات بالدعاء والبكاء والاستغفار، واعترفوا إلى الله بما اقترفوه من الخطايا والأوزار[67].

كما وقع سنة 1074هـ/1664م سيل مهيل دخل الحرم[68]، وتحدث تقي الدين السنجاري(1057-1125هـ/1647-1713م) عن الحادثة في كتابه عندما نقل عن شيخه هول الكارثة والخوف والرعب حتى هيئ لهم طوفان نوح عليه السلام بقوله[69]:

قهقه الرعد عندما ابتسم البــرق فأبكى الغمام قطر المياه
وأذاب قلوبـنـــا الخـــوف والرعب فويــل لغـافل القلب لاه
ورأينـــا طــوفــان نـــوح وبــالموت قطعنـــا لولا حنان الإله

كان من البديهي أنْ تعكس هذه المحن مدى استجابة الإنسان للتّوبة والارتداع عن ارتكاب المعاصي خوفا من العقاب وقرب علامات الساعة؛ ففي سيل سنة 1079هـ/1669م بالمدينة المنورة رجفت البلاد، وانزعجت العباد وضجت الأصوات بالدعاء، وجرت العبرات بالدموع والبكاء، وصار تحية الناس بعضهم البعض: تهناكم السلامة[70].

بناء على ذلك، أسهمت السيول بدور كبير في ترسيخ الطاعة والتقرب إلى الله، لدفع الضرر وتحقيق الأمان، والتوجه إلى الله تعالى هو تسكين للقلوب وتخفيف من سطوة الطبيعة، وتحقيق للتوازن النفسي.

**2- التبرك ببقايا المسجد الحرام:** التبرك هو طلب البركة، والتبرك بالشئ طلب البركة بواسطته، وتعني البركة في القرآن والسنة: ثبوت الخير ودوامه، أو كثرة الخير وزيادته، أو اجتماعهما معا[71]، واختلف المسلمون في أمور التبرك بين المشروع والممنوع، فعلى سبيل الذكر لا يجوز التبرك بالمساجد ولا المسجد الحرام وما يتصل بها من جدران وتراب وأبواب[72].

أما البركة فهي محمودة دون تجاوز الحد في طلبها[73]، ولا شك أنّ البيت الحرام أي الكعبة هو أول بيت وضعه الله تعالى للصلاة والطواف وغيرها من العبادات[74]، ولما تحتويه هذه البقاع من الفضل العظيم والبركة تنافس النّاس في إصلاح المسجد الحرام في سيل سنة 1074هـ/1664م حيث أخرج العمال التراب كوما في جانب المسجد الحرام، وأخذ النّاس من نجارات الخشب وبعض التراب للبركة، و"كثير من النّاس لا يجيز ذلك بناء على أنّه كتراب الحرم وأحجاره وأشجاره لا يجوز إخراج شيء من ذلك"[75]، وكان العياشي(ت1090هـ/1679م) ممن نقل من خشب سقف البيت للبركة[76].

**سابعا: التضامن والتكافل الاجتماعي:** يعرف التضامن بأنّه سلوك إنساني نبيل يتمثل في تقديم المساعدة للغير مبني على التعاون والتآزر بين الأفراد والمجتمعات ماديا ومعنويا في مناسبات مختلفة[77]؛ فيبذل كل فرد ما يستطيعه حتى تتحقق الكفاية للمحتاج، وهذا لدفع الضرر والمحافظة على بناء المجتمع[78].

والحاجة الإنسانية تحتاج إلى تفعيل سياسة التكافل بين النّاس وبخاصة في حماية المقدسات الدينية، وكان في مقدمتهم الشريف مسعود بن إدريس بن حسن ومعه السادة الأشراف والأعيان الذين شرعوا سنة 1039هـ/1630م بعد النّداء العام في إزالة الطين الكائن في السجد الحرام؛ "فشمر الشريف عن أكمامه، وأخذ مكتلا وحمل فيه شيئا من الطين، وفعل النّاس كذلك، فما كان أسرع من تنظيف المطاف وما حوله، فباشر الخطيب الجمعة وأقام شعائرها، ثم شرعوا في رفع الأحجارة التي سقطت من البيت الشريف، فمنها ما جعلوه خلف مقام الحنفية، ومنها ما جعلوه عند باب السلام بالقرب من أشبر"[79].

تتسع دائرة التكافل والتمسك بروح الجماعة لتشمل جميع أفراد المجتمع لتحقيق المنفعة الخاصة والعامة، مبعثها الوازع الديني وابتغاء فضل الله تعالى، ففي سيل مدينة المنورة سنة 1073هـ/1680م الذي أغرق المسجد الحرام اجتمع النّاس لإخراج الماء من المسجد بالأسطال والأواني الكبار، فجدّ في ذلك من رغب في الجد[80]، وكان العياشي ممن ساهم في هذا العمل بقوله: " وكانت لنا سطلة كبيرة من نحاس فأتينا بها وبواحد من أصحابنا يستقي بها اغتناما لبركة الخدمة في تلك البقعة المطهرة، وكنت إذ ذاك فضله مرض لم أقدر على مزاولة شيء من أعمال الخدمة باليد، ولكني وقفت ورغبت النّاس في العمل، وعمل في ذلك جماعة من أصحابنا المغاربة أعمالا حسنة"[81].

وثمنت هذه القرائن بأوصاف أخلاق الأفراد وسلوكهم الذي يوحي بوعيهم الدائم بفضائل الحرم الشريف، حيث اجتمع النّاس في سنة 1074هـ/1664م عليتهم وعامتهم يدا واحدة ومعهم السلطان وأولاده وأقاربه، الذين ساهموا في تنظيف الحرم الشريف، وعندما يبست الأرض أمر السلطان بحرثها بالبقر ليتمكن الناس من رفعها، فحرثوها، فحرثوا فيها على ما قيل بثمانين من البقر، وعمل كافة النّاس في ذلك أربعة أيام من غير أجر على الله احتسابا[82]، وفي المنحى ذاته شجع الشريف سعد بن زيد[83] بعد حدوث سيل سنة 1079هـ/1669م بمكة الخاص والعام على أن يحضروا لتنظيف المسجد "وحضر بنفسه وباشر بيده الحجر الشريف. وعمل العلماء والأعيان والأشراف بأيديهم؛ فتم تنظيف المطاف في ذلك اليوم"[84].

**ثامنا: الأثر الايجابي سيول القرن(11هـ/17م):** ما من شك أنّ الآثار السلبية للسيول قد طغت على المادة التاريخية وبشكل مكثف، لكن المثير للانتباه حقا أنّ نتائج الظاهرة المستفيضة قد كسرت النّمط السلبي إلى الايجابي، من خلال بعض النصوص الشحيحة التي أبرزت حقيقة واضحة توحي مؤشراتها بالنتائج الايجابية التالية:

**1- تجديد المياه وتغذية المياه الجوفية:** تساهم السيول في تغذية المياه الجوفية، وتعتبر هذه التغذية الطبيعية مهمة في المناطق الحارة، وفضلا عن الكوارث الناجمة عن السيول، فإنّه يمكن الاستفادة منها في تغذية المياه الجوفية، مثلما حدث في سيل

سنة 1039هـ/1630م حيث غزرت المياه وعذبت فوق العادة، حتى زمزم قد زال ما فيها من الطعم، وغزر ماؤها وارتفع حتى كاد يتناول باليد[85].

**2- انكسار الحرارة:** تعمل الرطوبة على تبريد هيكل المبنى بسبب النّداوة والرطوبة التي تسبب بها السيل، كما يساهم الاختلاف المحسوس في درجات الحرارة بين الهواء الخارجي والهواء الداخلي بالتبريد الموضعي للمبنى، ولقد استفاد الحجاج الذين عايشوا سيل 1039هـ/1630م من انكسار الحرارة بمكة وبشعابها وبالمسجد وأفنيته لنداوة الأرض، وفي هذا المقال صرح شاهد عيان وهو العياشي في رحلته بقوله: "لقد أنعم الله علينا ببيت كنا نأوي إليه، ووجدنا أثر الماء قد كاد يبلغ منه إلى السقف، وبقيت أرضه وجدرانه ندية، فكنا إذا اشتد وهج الحر ودخلناه وأغلقنا بابه علينا لا نحس بشئ من وهج الحر، ويغشانا فيه نسيم بارد، وكنا نحمد الله على ذلك"[86].

**3- رخص الأسعار:** من المعروف أنّ السيول تسبب خسارة فادحة سواء بالنسبة للنّبات أو الحيوان فتتعرض الأسواق للتّراجع والتّدهور ويحدث الغلاء، لكن الملاحظة الجديرة بالتسجيل أنّ بعض سيول القرن 11هـ/17م قد صاحبتها ظاهرة رخص الأسعار في الأسواق؛ فمن نتائج سيل المدينة المنورة في سنة 1073هـ/1663م رخص الأسعار على حد قول العياشي: "لم يأتي أحد من ناحية إلا حدث بالجود، فلانت الأسعار وكثر اللبن والجبن في الأسواق، وكان الجبن أول ما بدأ يباع بثمانية مائدية للرطل، فلم تمضي إلا مدة يسيرة حتى صار يباع بمائديين، وكثر اللحم السمين وكان قبل ذلك هزيلا جدا"[87].

وهكذا يمكن اعتبار السيل مؤشرا بنائيا لتحسين المستوى المعيشي، ولكن هذه الظاهرة جاءت بعد جفاف قد أصاب المدينة في السنة نفسها مما سمح بإنعاش الحياة بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان.

**تاسعا: المعالجات البيئة لدرء مخاطر السيول خلال القرن 11هـ/17م:** تكفلت السلطة الزمنية بدور حيوي في عملية إنشاء المشاريع المائية، باعتبارها شكلا من أشكال الحماية البيئية؛ فأقيمت السدود على الوديان لإزالة خطر الفياضانات عندما ورد سليمان أغا ميرياخور السلطان محمد خان(1051-1104هـ/1642-1692م) إلى

ردمد EISSN 2600–6324 ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

مكة[88] سنة 1091هـ/1681م، الذي نزل بوادي نعمان ومعه المعلمين والمهندسين لبناء سد يمنع من سيل الوادي[89].

ونتيجة الطبوغرافية المكانية لمكة المكرمة التف سليمان أغا ميرياخور إلى أسفل مكة، وهو المسفلة، فجعل هناك قناة طويلة واسعة لتصريف السيل إلى بركة ماجن[90]. وتعتبر هذه القناة من وسائط السيطرة البيئية للحد من خطر السيول.

ومن الأعمال البنائية والوقائية لمنع تسرب المياه إلى الحرمين الشريفين، ما قام به شيخ الحرم النبوي في حدود سنة 1073هـ/1662م، من رواق القبلة عن صحن المسجد بأحجار منحوتة، ثبتت في الأرض بين الأساطين الموالية للصحن، بقصد منع ماء الصحن من الدخول إلى الرواق القبلي، كما حدث في الأمطار التي شهدتها المدينة في السنة نفسها[91]، وفي سنة 1091هـ/1681م زاد سليمان أغا ميرياخور في درج أبواب الحرم من الخارج لمنع السيل من الدخول[92].

وبالرغم من الجهود المبذولة لمنع السيول أو التخفيف من أضرارها إلا أنّ مكة المكرمة لم تسلم من ضغوط الطبيعة التي انتابتها على فترات فجائية بسبب التغيرات المناخية خلال القرن 11هـ/17م.

**عاشرا: جهود السلطة الزمنية في إصلاح الحرم الشريف وعمارته:** أدى طغيان ظاهرة السيول خلال القرن 11هـ/17م إلى إعادة الهيكلة العمرانية للمسجد الحرام وفق معايير الاستدامة والمتانة، ومن المفيد التذكير بأنّ مواصفات مواد البناء المستخدمة في العمران تقوم بدور أساس في تحديد الكفاءة البيئية الكلية، وكانت الفضة أولى المواد التي استعملت في عهد السلطان أحمد خان (1012-1026هـ/1603-1617م)[93]، حيث أشار عليه بعض المهندسين المعماريين بعمل نطاقين من الفضة مطليين بالذهب تشد بها الكعبة المشرفة لمنع جدرانها من السقوط فأخذ السلطان بهذه المشورة[94]، واستمرت الكعبة المشرفة إلى سنة 1039هـ/1630م دون تهدم مشدودة بالنطاقين الموضوعين حولها[95].

وعلى عكس تحصين الكعبة بالفضة، والتي سمحت باستمرارها إلى غاية سيل سنة 1039هـ/1630م مما أفضى إلى خرابها؛ فقد تطلب الأمر إلى تحولات عمرانية باستعمال الخشب الذي يعتبر من المواد العضوية المقاومة للضغط وعازل جيد

للحرارة[96]، لتماسك البنيان، إذ أرسل الشريف "إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا في العمارة، فوصل الخشب من جدة في آخر شهر رمضان، وحصلوا خشبا آخر من مكة، وستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا بابا لطيفا على بقية جدران البيت، فركبوها في الشهر المذكور، ثم نسج الشريف ثوبا أخضر وألبسه الكعبة المشرفة بعد أن حضر بالمسجد الحرام، ثم بعد إلباسه ذلك دخل الكعبة وصلى بها"[97].

ولقد سمحت السيول بإعادة تشيد الكعبة واستعمال مواد تحصينية أخرى كالرخام الذي يتميز بصلابته ومقاومته للضغط الكبير الناتج عن الثقل، فضلا عن مقاومته للظواهر الطبيعية مثل الأمطار والثلوج والحرارة، وهو من المواد الأساس التي استعملت في إصلاح سطح الكعبة بعد الخراب الذي أصابها جراء سقوط مطر غزير في مدة أسابيع سنة 1045هـ/1635م وفرش سطح الكعبة المشرفة بالرخام الأبيض وتم بناء المقام الشريف[98].

عموما، لم تترد السلطة الزمنية في التدخل من أجل إصلاح المسجد الحرام وعمارته وترميم ما تهدم منها جراء السيول، مما يثبت طغيان الهاجس الديني في صون الحرم الشريف من ضرر الكوارث الطبيعية، وتقدم الهندسة المعمارية في القرن 11هـ/17م.

**خاتمة:** اتضح من خلال تتبع أثر الكوارث الطبيعية المناخية المتمثلة في السيول في حقبة الدراسة أنّ السيول تحدث في شكل وقتي إما متقاربة أو متباعدة زمنيا، وتختلف في شدتها وأسبابها الطبيعية المناخية، وكانت آثارها مدمرة للبيئة الحيوية ومخربة للأنشطة البشرية، حيث أدت السيول إلى واقع مثخن بالفواجع، ومما زاد من تفاقم الوضع تحطيم عمران المدن ( مكة، المدينة، الطائف) وبالأخص المسجد الحرام، كما خلفت ظاهرة السيول خراباً أتى على الإنسان والحيوان والنبات، وأثر على الحياة العلمية بعد غرق المكتبات، وشمل التأثير على الحياة الدينية بتعطيل العبادات وأداء الفرائض، وارتبط التأثير على الحياة الاقتصادية بغلاء في الأسعار واستفحال ظاهرة الجوع.

وعلى غرار ذلك، أثرت السيول بطريقة ايجابية على الموارد المائية وتغذيتها طبيعيا، وكان لرطوبتها دور في التبريد وانكسار حرارة المنطقة، وبالمقابل تأثر الإنسان بالسيول وأحدث تغيرات على المستوى الإنساني والسلوكي، وهي ردة فعل إيجابية عمقت أواصر الدين الإسلامي وترسيخ قيمه.

إلى جانب ذلك، ساهمت السلطة الزمنية في تكثيف الجهود، وإيجاد معالجات بيئية للسيول كبناء السدود وقنوات تصريف المياه وذلك احترازا من الأضرار التي تنجم عن السيول المتكررة. فضلا عن ذلك رفعت الأضرار التي مست الحرم الشريف، وساهمت بإمكانياتها بإصلاح وإعادة عمارة المسجد الحرام تشريفا وتعظيما لفضله على المسلمين.

**الهوامش:**

1- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(ت711هـ/1311م)، **لسان العرب**، (بيروت، دار صادر، 2003م)، ج7، ص320.

2- زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت 666هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد (المكتبة العصرية ، الدار النموذجية، بيروت ،**1999**م، ط5 )، ص159.

3- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ( بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، 1957م)، ص.553

4-شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الانصاري الدمشقي شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق: غسان داوود الناصير، أحمد محمد وليد أيوب، طلال سالم الحديني،(دار العرب، سوريا، 2013)، ص151

5-شيخ الربوة، المصدر السابق، ص.151

6-صبري محسوب، محمد إبراهيم أرباب، **الأخطار والكوارث الطبيعية، الحدث والمواجهة**، ط1( القاهرة، دار الفكر العربي، 1998م)،ص 95.

7-محمد بن أبي بكر بن أحمد الشيلي باعلوي، **كتاب عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر**، تحقيق: ابراهيم أحمد المقحفي، ط1، ( صنعاء، مكتبة تريم الحديثة، 2003م)، ص.366

8-عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي(ت1111هـ/1699م)، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الوجود، الشيخ علي محمد معوض،ط1(بيروت، دار اكتب العلمية، 1998م)،ج4، ص.434

9-صباح محمود محمد، **الطقس والمناخ**، (منشورات الجاحظ، الموسوعة الصغيرة، العدد89، بغداد)، ص60.

10-المرجع نفسه، ص60. ---- 11- نفسه، ص 58.

12-علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري(1057-1125هـ/1647-1713م)، **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، تحقيق: ماجدة فيصل زكريا، ط1(مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1998م)، ج4، ص224

13-السنجاري تقي الدين، المصدر نفسه، ج4، ص224.

14-محمد طاهر الكردي المكي، **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، ط1(مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، 2000م)، ج4، ص.365

15-علي بن عبد القادر الطبري(ت1070هـ)، **الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء**، تحقيق: أشرف عبد الجمال، ط1،( مكة المكرمة، المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، 1996م)، ص108-.109

16-من أودية المدينة المنورة التي تسيل إذا كثرت الأمطار نذكر وادي العقيق، وادي بطحان، وادي قناة،. ينظر: عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية**(1661-1663م)، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، ط1(الإمارات العربية المتحدة، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006م)، ج1، ص417.- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **الرحلة الناصرية(1121-1122هـ/1709-1710م)**، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، (الإمارات العربية المتحدة، دار السويد للنشر والتوزيع ، 2011م)،ج1، ص556-.562

17-الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص364./ عبد الباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنورة**، ط1(المدينة المنورة، 1993م)، ج2، ص366.---- 18-العياشي، المصدر السابق، ج1، ص420- 456-.457

19-إبراهيم بن سليمان الأحيدب، **المدخل إلى الطقس والمناخ والجغرافية المناخية**، ( الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)،ص420. ---- 20- الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص211.---- 21-المصدر نفسه، ص.366

22-المصدر نفسه، ص366.

23-قام شومان سنة 1417هـ بدارسة السيول التي حدثت في تاريخ مكة منذ العام17هـ حتى 1394هـ، وتوصل إلى توزيع السيول وتصنيفها إلى ثلاث درجات. ينظر: معراج نواب مرزا، بدر الدين يوسف محمد أحمد، **أحوال الطقس والمناخ في الشتاء بمكة المكرمة**، سلسلة رسائل جغرافية، العدد653(قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، ربيع الأول 1422هـ-يونيو 2001م)، ص.76

24-العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص434./ أحمد بن زيني دحلان(ت1304هـ)، **كتاب تاريخ زيني الدين دحلان المسمى خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا الحالي**، تحقيق: محمد فارس الشيخ، رأفت عبد العزيز، (مكة المكرمة، مطبوعات أرض الحرمين)، ص152/ محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي، الصباغ،( 1321هـ/1643م)، **تحصيل المرام في أحبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرام وولاتها الفخام**، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط1،( مكتبة الأسدي، 2004م)، ج1، ص879-881/ الطبري، المصدر السابق، ص108-109/ محمد طاهر الكردي المكي، المرجع السابق، ج4، ص365-366.

25-العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص434.---- 26-الطبري، المصدر السابق، ص108-.109

27-الصباغ، المصدر السابق،ج1، ص881.---- 28-السنجاري، المصدر السابق، تحقيق جميل عبد الله محمد المصري، ج3، 557.---- 29-العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص434.

30-الطبري، المصدر السابق، ص108-109/السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، ج4، ص65.---- 31-لشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص211.---- 32-الصباغ، المصدر السابق،ج1، ص879.---- 33-المصدر نفسه،ج1، ص879

34-محمد طاهر الكردي المكي، المرجع السابق، ج4، ص366.

35-السيد محمد كبريت الحسيني المدني(ت1070هـ) ، **الجواهر الثمينة في محاسن المدينة**، تحقيق أحمد سعيد بن سلم، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م)، ص191.---- 36-الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص364./ عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ج2، ص366.---- 37-الطبري، المصدر السابق،، ص144/ العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص435/ السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، ج4، ص65

38-الشيخ أحمد الرشيد، **حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج**، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي بمصر، ط(1980م)، ص181/ أحمد بن محمد بن أحمد بن عبده الحضراوي(ت1327هـ/1909م)،

**مختصر حسن الصفا والابتهاج من ذكر من ولي إمارة الحاج**، تحقيق: محمد بن ناصر الخزيم، محمد بن سيد أحمد التمساحي، ط1( القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2006م)، ص.147

39-السلطان مراد خان بن أحمد خان(1032-1049هـ/1622-1639م)، أخو السلطان عثمان خان، جلس على العرش سنة 1033هـ، ينظر: السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، ج3، ص572/ الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص، 256./ محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق : احسان حقي، ط1، ( بيروت، دار النفائس، 1981م)، ص280./ إبراهيم حسنين، المرجع السابق، ص364./ يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عدنان محمود سلمان، ط1، (تركيا، منشورات فيصل للتمويل، 1988م)، ج1، ص468.-484.

40-أحمد بن زيني دحلان، المصدر السابق، ص152./ محمد طاهر الكردي المكي، المرجع السابق، ج4، ص.365

41-العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص434.---- 42-الصباغ، المصدر السابق، ج1، ص879

43-محمد طاهر الكردي المكي، المرجع السابق، ج4، ص366/ أحمد السباعي، **تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران**، ( الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1419هـ)، ج2، ص.439

44-الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمي، ولي مكة سنة 1039هـ، كان ملكا جوادا كريما، حسن التدبير عارفا بمقادير العلماء توفي سنة 1040هـ ينظر: السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، 38-64./ أحمد بن زيني دحلان، المصدر السابق،ص152./ أحمد السباعي، المرجع السابق ج2، ص416

45-السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، ص88./ أحمد السباعي، المرجع السابق، ج2، ص416.---- 46-المصدر نفسه، ج4، ص88.---- 47-نفسه، ج4، ص285

48-ابن قيم الجوزية،محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت751هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1998م)، ج1، 47 .

49-الطبري، المصدر السابق، ص108-109.---- 50-العاصمي المكي، المصدر السابق،ج1، ص.879

51-الطبري، المصدر السابق، ص107/ الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص169.

52-العياشي، المصدر السابق، ج2، ص141. ---- 53-محمد طاهر الكردي المكي، المرجع السابق، ج4، ص365/ أحمد بن زيني دحلان، المصدر السابق، ص158./ السنجاري تقي الدين، المصدر السابق،ج4، ص.202

54-الشيخ عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن عامر المغربي الجعفري الثعالبي الهاشمي، المالكي مذهبا، نزيل المدينة المنورة ثم مكة المشرفة، إمام الحرمين الشريفين(ت1080هـ)، العالم المتفنن في كل العلوم. ينظر: محمد أمين بن فضل بن محب الدين بن محمد المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تحقيق عبد الكريم بن سنان، محمد بن عبد الرحيم،( بيروت، دار صادر) ج3، ص240/ الشلي باعلوي، المصدر السابق، ص333./ محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط1، ( الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، 2004م)، ص283/ محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق، ط1، ( الرباط، مكتبة الطالب، 1982م)، ج2، ص185-187.---- 55-المحبي، المصدر السابق، ج3، ص.242

56-العياشي، المصدر السابق،ج2، ص142-143.---- 57-الشلي باعلوي، المصدر السابق، ص.266

58-إدوارد كلير، **الجيولوجيا البيئية**، سلسلة الكتب الجامعية المترجمة، (المملكة العربية السعودية، العبيكان)، ص4.---- 59-أمل صلاح عبد الرحمن جمبي، **مصادر مياه الشرب ومشكلاتها في مدينة مكة المكرمة: دراسة في جغرافية الموارد المائية**، (دراسة نيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، جامعة أم القرى، 1433-1334هـ)، ص.25

60-العياشي، المصدر السابق، ج2، ص141.---- 61-المصدر نفسه، ج2، ص141.---- 62-نفسه، ج2، ص.310

63-إسماعيل حقي جارشلي، **أشراف مكة المكرمة وأمرائها في العهد العثماني**، ط1(بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2003م)،ص148.---- 64-الصباغ، المصدر السابق، ج1 ص879.---- 65-مختصر حسن الصفا، ص246.---- 66-الطبري، المصدر السابق، ص144/ العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص.435

67-الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص208-209.---- 68-السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، ص224.---- 69-المصدر نفسه، ج4، ص224.---- 70-الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص364.

71-ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، **التبرك أنواعه وأحكامه**، ( الرياض، مكتبة الرشد)، ص.39

72-المرجع نفسه، ص429.---- 73-نفسه، ص5.---- 74-نفسه، ص110.---- 75-العياشي، المصدر السابق،ج2، ص162.---- 76-المصدر نفسه،ج2، ص162.

77-هدى علي جواد الشمري، **مباحث في علم الاجتماع الاسلامي**، ط1(دار المناهج للنشر والتوزيع، 2011م)، ص.57

78-محمد أبو زهرة ،**التكافل الاجتماعي في الإسلام**، ( القاهرة، دار الفكر العربي)، ص.4

79-الطبري، المصدر السابق، ص144./ العاصمي المكي، المصدر السابق،ج4، ص435.---- 80-العياشي، المصدر السابق، ج1، ص458.---- 81-المصدر نفسه، ج1، ص458.---- 82-نفسه، ج 2، ص141

83-سعد بن زيد بن محسن بن الحسين بن حسن بن أبي نمي، ولي مكة سنة (1077هـ/1677م). ينظر: السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، ص239.---- 84-الشيلي باعلوي، المصدر السابق،، ص.329

85-العياشي، المصدر السابق، ج2، ص143.---- 86-المصدر نفسه، ج2، ص143.---- 87-نفسه، ج1، ص.456

88-السلطان محمد خان الرابع ابن السلطان إبراهيم، جلس على العرش سنة (1051-1104هـ/1642-1692م)، ينظر: محمد فريد بك، المصدر السابق، ص289-304/ عزتلو يوسف بك آصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان**، ط1، ( مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م)، ص91/ إبراهيم حسنين، **سلاطين الدولة العثمانية**، ( الإسكندرية، دار التعليم الجامعي، 2014م)، ص367

89-السنجاري، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، ص473./ الشيلي باعلوي، المصدر السابق، ص.143

90-السنجاري، المصدر السابق، ج4، ص473./ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ط1، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1925م)، ص200

91-العياشي، المصدر السابق، ج1، ص458/محمد هزاع الشهري، **المسجد النبوي الشريف في العصر العثماني (923-1344هـ)" دراسة معمارية حضارية**، ط1(القاهرة، دار القاهرة للكتاب، 2003م)، ص53

92-السنجاري تقي الدين، المصدر السابق، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، ج4، ص.473

93-السلطان أحمد خان الأول(1012-1026هـ/1603-1617م)، توفي وعمره 28 سنة ومدة حكمه 14 سنة.. ينظر:محمد فريد بك، المصدر السابق، ص271.-275./ يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص.443

94-فوزية حسين مطر، **تاريخ عمارة المسجد الحرام من العصر العباسي الثاني حتى العصر العثماني**، (رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، 1406هـ/1986م)، ص205

95-فوزية حسين مطر، المرجع السابق، ص.207

96-يحي وزيري، **موسوعة عناصر العمارة الإسلامية**، ( القاهرة، مكتبة مذبولي،2000م)، ج3، ص109.

97-الطبري، المصدر السابق،، ص144.--98-فوزية حسين مطر، المرجع السابق، ص231.